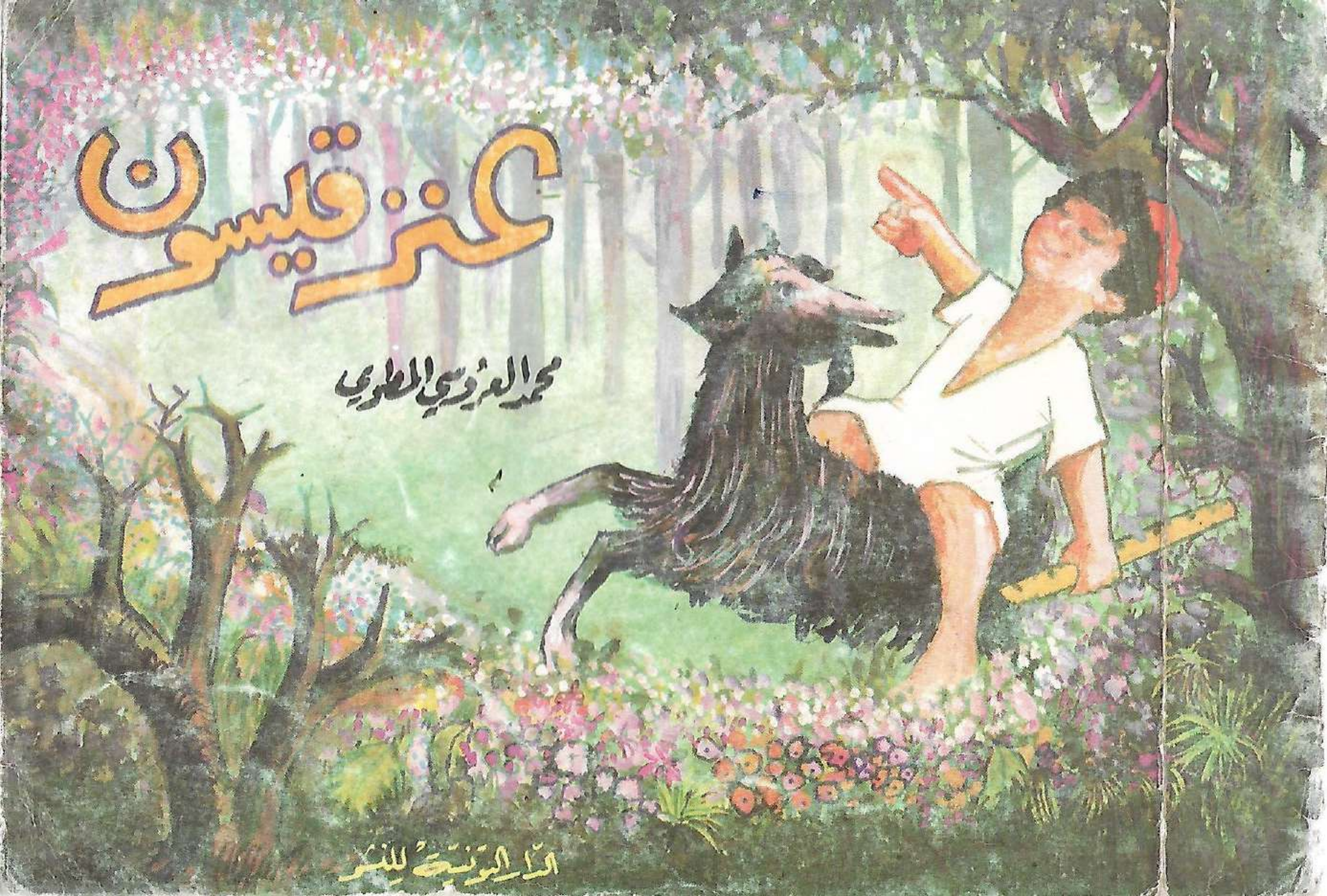

عنز قيسون
محمد العروسي المطوي
الدار التونسية للنشر

محمد العروسي المطوي

عنز قيسون

الطبعة العاشرة

الدار التونسية للنشر

المطــوي (محمد العروسي).

عنــز قيســون / محمد العروســي المطوي . ــ ط . 10 .
ــ تونس : الــدار التــونسية للنشــر، 1987 (تونس :
مصنــع الكتاب للشركة التونسية للتوزيع). ــ 36 ص . :
صــور، غلاف مصور ؛ 16 × 24 ســم .

مسفــر : إ.ق . 87/139

طبع بمصنع الكتـاب
للشركة التونسيـة للتوزيع
5، شارع قرطاج ـ تونس
T.T. 7/3/87
شعبان 1407 ـ أفريل 1987

سحب من هذا الـكتـاب 15.300 نسخة
في طبعته العاشرة

عنز قيسون

يُحْكَى أَنَّ حَطَّاباً كَانَ يَقْضِي كَامِلَ يَوْمِهِ فِي قَطْعِ ٱلْأَخْشَابِ مِن غَابَةِ «سَجْنَانَ» . وَعِنْدَمَا يَتَجَمَّعُ لَدَيْهِ مِقْدَارٌ كَبِيرٌ مِنَ ٱلْخَشَبِ يَذْهَبُ إِلَى ٱلسُّوقِ ٱلْأُسْبُوعِيَّةِ فِي ٱلرِّيفِ لِيَبِيعَهُ وَيَشْتَرِيَ بِثَمَنِهِ قُوتَهُ وَقُوتَ زَوْجَتِهِ وَأَطْفَالِهِ .



وَكَانَ لِهَذَا ٱلحَطَّابِ وَلَدٌ صَغِيرٌ ٱشْتَهَرَ بِحُبِّ ٱلْعَمَلِ ، وَحِدَّةِ ٱلذَّكَاءِ وَكَثْرَةِ ٱلطَّاعَةِ وَٱلاحْتِرَامِ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ. وَكَانَ يُسَمَّى قَيْسًا. وَلَكِنَّ أُمَّهُ كَانَتْ تُنَادِيهِ مُنْذُ صِغَرِهِ بِاسْمِ «قَيْسُونَ» حَتَّى نَسِيَتِ ٱلْأُسْرَةُ ٱسْمَهُ ٱلْأَوَّلَ وَأَصْبَحَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِاسْمِ «قَيْسُونَ»

وَعِنْدَمَا يَذْهَبُ ٱلحَطَّابُ إِلَى ٱلْغَابَةِ لِيَقْطَعَ ٱلْأَخْشَابَ وَيَجْمَعَ ٱلْحَطَبَ ، يَذْهَبُ مَعَهُ قَيْسُونُ لِيُسَاعِدَهُ عَلَى عَمَلِهِ ، وَلِيَتَدَرَّبَ عَلَى قَطْعِ ٱلْأَخْشَابِ وَجَمْعِ ٱلْحَطَبِ ، كَيْ يُصْبِحَ حَطَّابًا مَاهِرًا مِثْلَ وَالِدِهِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ ، بَيْنَمَا كَانَ قَيْسُونُ يَنْقُلُ حُزْمَةَ حَطَبٍ إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ رَأَى عَجُوزًا مُسِنَّةً يُطَارِدُهَا كَلْبٌ عَقُورٌ ، وَهْيَ تَصْرُخُ وَتَسْتَغِيثُ بِمَنْ يَدْفَعُ عَنْهَا أَذَى هَذَا الْكَلْبِ الشِّرِّيرِ ، فَأَسْرَعَ قَيْسُونُ إِلَى نَجْدَتِهَا فَرَمَى بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَاسْتَلَّ مِنْهَا عَمُودًا غَلِيظًا . ثُمَّ انْدَفَعَ نَحْوَ الْكَلْبِ وَضَرَبَهُ عَلَى رَأْسِهِ ، فَارْتَدَّ الْكَلْبُ خَائِفًا مَذْعُورًا ، وَفَرَّ هَارِبًا يَعْوِي عُوَاءً غَرِيبًا إِلَى أَنِ اخْتَفَى وَسَطَ الْغَابَةِ . وَأَقْبَلَ قَيْسُونُ عَلَى الْعَجُوزِ يُوَاسِيهَا وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا مُسَاعَدَتَهُ ، فَشَكَرَتْهُ عَلَى إِنْقَاذِهَا مِنْ خَطَرِ الْكَلْبِ ، وَدَعَتْ لَهُ بِخَيْرٍ. ثُمَّ قَالَتْ لَهُ :

- اِسْمَعْ ، يَا بُنَيَّ .. إِنَّنِي لَا أَنْسَى مَعْرُوفَكَ طُولَ حَيَاتِي . وَلَا أَسْتَطِيعُ مُكَافَأَتَكَ عَلَى جَمِيلِكَ إِلَّا بِأَنْ أُهْدِيَ لَكَ عَنْزاً كَرِيمَةً سَتُوَفِّرُ لَكَ الْخَيْرَ وَالنَّعِيمَ إِذَا أَنْتَ أَحْسَنْتَ رِعَايَتَهَا وَأَكْرَمْتَهَا .

ثُمَّ صَفَّقَتْ بِيَدَيْهَا مَرَّتَيْنِ فَانْتَصَبَتْ أَمَامَهَا عَنْزٌ جَمِيلَةٌ ، سَوْدَاءُ اللَّوْنِ ، بَرَّاقَةُ الشَّعَرِ ، مُكْتَنِزَةُ اللَّحْمِ .

وَأُعْجِبَ قَيْسُونُ بِهَذِهِ الْعَنْزِ الْجَمِيلَةِ فَقَبِلَهَا فَرِحًا مَسْرُورًا ، وَقَالَ لِلْعَجُوزِ :

- أَشْكُرُكِ - يَاسَيِّدَتِي - عَلَى هَدِيَّتِكِ الثَّمِينَةِ . وَأَعِدُكِ بِأَنَّنِي سَوْفَ أَبْذُلُ كُلَّ جُهُودِي فِي رِعَايَتِهَا وَإِكْرَامِهَا .

فَقَالَتْ لَهُ الْعَجُوزُ :

حَسَنًا - يَاوَلَدِي - وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَصْدُقَ فِي وَعْدِكَ ، وَتُخْلِصَ فِي مُعَامَلَتِكَ لِهَذِهِ الْعُنَيْزَةِ الْجَمِيلَةِ ، فَهِيَ لَيْسَتْ كَالْمَعِيزِ الْأُخْرَى . وَأَعِدُكَ بِأَنَّكَ سَوْفَ تَلْقَى مِنْهَا كُلَّ خَيْرٍ .

وَبَعْدَ أَنِ انْتَهَتْ مِنْ كَلَامِهَا وَدَّعَتْهُ وَانْصَرَفَتْ مُتَوَغِّلَةً فِي مَسَارِب

ٱلْغَابَةِ إِلَى أَنْ غَابَتْ عَنِ ٱلْأَنْظَارِ .

مُنْذُ ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ أَصْبَحَ قَيْسُونُ لاَ يَذْهَبُ وَحْدَهُ إِلَى ٱلْجَبَلِ ؛ بَلْ كَانَ يَصْطَحِبُ مَعَهُ عَنْزَهُ ٱلْجَمِيلَةَ ، يَرْعَاهَا ، وَيَخْتَارُ لَهَا ٱلْأَمْكِنَةَ ٱلْمُعْشِبَةَ. وَقَبْلَ ٱلْعَوْدَةِ إِلَى ٱلْكُوخِ يَذْهَبُ بِهَا إِلَى ٱلْجَدْوَلِ لِتَشْرَبَ مِنْ مَائِهِ ٱلْعَذْبِ ٱلنَّمِيرِ .

أَصْبَحَ قَيْسُونُ بِمُرُورِ ٱلْأَيَّامِ يُحِبُّ عَنْزَهُ حُبًّا جَمًّا كَمَا يُحِبُّ أُخْتَهُ ٱلصَّغِيرَةَ «بَاخُوشَه» فَكَانَ يُقَدِّمُ لَهَا ٱلْأَعْشَابَ بِيَدَيْهِ ، وَيَخْتَارُ لَهَا ٱلْأَزْهَارَ ٱلْفَوَّاحَةَ . وَإِذَا ظَنَّ أَنَّهَا تَعِبَتْ مِنَ ٱلْمَشْيِ أَوْ ٱلتَّوَقُّلِ فِي شِعَابِ ٱلْجَبَلِ حَمَلَهَا عَلَى كَتِفَيْهِ إِلَى أَنْ يُدْرِكَهُ ٱلتَّعَبُ فَيُنْزِلَهَا وَيَتْرُكَهَا تَمْشِي تَارَةً أَمَامَهُ ، وَتَارَةً خَلْفَهُ .

وَإِذَا ٱشْتَدَّ حَرُّ ٱلظَّهِيرَةِ يَخْتَارُ لَهَا
مَكَانًا ظَلِيلاً فِي مَدْخَلِ كَهْفٍ
أَوْ تَحْتَ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ .ثُمَّ يَشْرَعُ
فِي هَدْهَدَتِهَا عَلَى نَغَمَاتِ مِزْمَارِهِ
ٱلْقَصَبِيِّ



إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ مِنِ ٱجْتِرَارِ مَا أَكَلَتْهُ فِي ٱلصَّبَاحِ لِتَعُودَ بَعْدَ ٱلْقَيْلُولَةِ إِلَى ٱلْمَرْعَى مِنْ جَدِيدٍ .

وَعِنْدَ ٱلْأَصِيلِ يَأْخُذُهَا إِلَى ٱلْجَدْوَلِ لِتَكْرَعَ فِي مَائِهِ . وَيَغْتَسِلُ هُوَ مِنْ غُبَارِ ٱلْغَابَةِ . ثُمَّ يَعُودَانِ مَعَ ٱلْحَطَّابِ إِلَى ٱلْكُوخِ ؛ وَقَدْ أَوْشَكَتِ ٱلشَّمْسُ عَلَى ٱلْغُرُوبِ .

وَذَاتَ مَرَّةٍ ، مَرِضَ ٱلْحَطَّابُ مَرَضًا شَدِيدًا أَلْزَمَهُ ٱلْفِرَاشَ أَيَّامًا عَدِيدَةً . وَطَالَتْ بِالْحَطَّابِ أَيَّامُ ٱلْمَرَضِ حَتَّى نَفِدَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ مُدَّخَرِ ٱلزَّادِ وَٱلطَّعَامِ ، وَأَشْرَفَتِ ٱلْأُسْرَةُ عَلَى ٱلْمَوْتِ جُوعًا ، وَعَلَى ٱلْهَلَاكِ عُرْيًا . وَرَغْمَ ذَلِكَ فَقَدِ ٱسْتَمَرَّ قَيْسُونُ يَسْعَى إِلَى ٱلْجَبَلِ كُلَّ يَوْمٍ مَعَ عَنْزِهِ ٱلْجَمِيلَةِ يَخْتَارُ لَهَا مَنَابِتَ ٱلْعُشْبِ ، وَيَسْقِيهَا مِنَ ٱلْجَدْوَلِ ، وَيُهَدْهِدُهَا عَلَى نَغَمَاتِ ٱلْمِزْمَارِ عِنْدَ ٱلظَّهِيرَةِ .

فَلَمَّا طَالَتْ بِالْحَطَّابِ أَيَّامُ ٱلْمَرَضِ ٱبْتَدَأَ قَيْسُونُ يَشْعُرُ بِالْحُزْنِ وَٱلْأَسَى يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ . وَتَحَيَّرَ مَاذَا يَفْعَلُ لِيَشْفِيَ أَبَاهُ مِنَ ٱلْمَرَضِ ، وَكَيْفَ يَحْصُلَ عَلَى قُوتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَإِخْوَتِهِ ٱلصِّغَارِ .

وَظَلَّ عَلَى حَيْرَتِهِ أَيَّامًا عَدِيدَةً دُونَ أَنْ يَصِلَ إِلَى وَسِيلَةٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْقِذَ بِهَا أَبَاهُ مِنْ خَطَرِ ٱلْمَوْتِ ، وَأَنْ يَدْفَعَ عَنْ أُمِّهِ وَإِخْوَتِهِ ٱلْجُوعَ وَٱلْمَسْغَبَةَ .

وَلَمَّا ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلْحَيْرَةُ جَلَسَ مَهْمُومًا آسِفًا ، مُمْسِكًا رَأْسَهُ بَيْنَ كَفَّيْهِ ، مُغْرِقًا فِي ٱلتَّفْكِيرِ وَٱلْبَحْثِ عَنْ طَرِيقَةٍ يُنْقِذُ بِهَا أُسْرَتَهُ . وَفَجْأَةً صَاحَ قَيْسُونُ قَائِلاً :

« آهْ... وَجَدْتُ ٱلْحَلَّ !... عَنْزِي هِيَ ٱلْحَلُّ . سَوْفَ أَبِيعُهَا فِي ٱلسُّوقِ وَأَشْتَرِي بِثَمَنِهَا طَعَامًا » . وَصَمَتَ قَلِيلاً ثُمَّ عَادَ يَقُولُ :

« ... وَلَكِنْ هَلْ يَكْفِي ثَمَنُ ٱلْعَنْزِ ؟ هَلْ يُنْقِذُ أُسْرَتِي مِنَ ٱلْفَقْرِ وَٱلْجُوعِ ؟ هَلْ أَطْلُبُ مِنْ أُمِّي أَنْ تَذْبَحَهَا ؟ : لَكِنِّي سَوْفَ لاَ آكُلُ مَعَهُمُ ٱللَّحْمَ ... إِنَّهُ لَحْمُ عُنَيْزَتِي ٱلْجَمِيلَةِ ... إِنَّهَا بِمَثَابَةِ أُخْتِي ... لاَ ... لاَ ... لَنْ آكُلَ مِنْ ذَلِكَ ٱللَّحْمِ ... »

وَأَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ . وَأَمْسَكَ بِرَأْسِ ٱلْعَنْزِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَجَعَلَ يُقَبِّلُهَا عَشَرَاتِ ٱلْقُبَلِ وَيَقُولُ لَهَا :

«... لاَ ... لاَ ... لاَ ، يَاعُنَيْزَتِي ٱلْحَبِيبَةَ . لَنْ تَمُوتِي أَبَدًا ... لَنْ أَتْرُكَكِ يَا عَزِيزَتِي ...»

ثُمَّ تَذَكَّرَ أَنَّهُ لَمْ يُسْمِعْهَا أَلْحَانَ مِزْمَارِهِ ، وَلَمْ يُهَدْهِدْهَا ، وَهِيَ تَجْتَرُّ مَا أَكَلَتْهُ فِي ٱلصَّبَاحِ ، فَنَهَضَ عَلَى عَجَلٍ وَأَمْسَكَ بِالْمِزْمَارِ . وَشَرَعَ يَعْزِفُ أَلْحَانَهُ كَالْعَادَةِ . وَلَكِنَّ نَغَمَاتِ مِزْمَارِهِ كَانَتْ حَزِينَةً هَذِهِ ٱلْمَرَّةَ .

وَتَأَثَّرَتِ ٱلْعَنْزُ بِهَذِهِ ٱلنَّغَمَاتِ فَتَسَاقَطَتِ ٱلدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهَا فَكَفَّ قَيْسُونُ عَنِ ٱلْعَزْفِ رَأْفَةً بِهَا ، وَإِشْفَاقًا عَلَيْهَا مِنَ ٱلْبُكَاءِ .

وَعِنْدَ ٱلْأَصِيلِ عَادَ قَيْسُونُ صُحْبَةَ عَنْزِهِ إِلَى ٱلْكُوخِ فَوَجَدَ أَبَاهُ مَا يَزَالُ يَتَوَجَّعُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْأَلَمِ وَٱلْمَرَضِ . أَمَّا أُمُّهُ فَكَانَتْ تَطْبُخُ حَسَاءً هَزِيلاً لاَ سَمْنَ فِيهِ وَلاَ زَيْتَ ، وَهْوَ آخِرُ مَا بَقِيَ لَدَيْهَا مِنْ دَشِيشِ شَعِيرٍ كَانَتْ تَسْلُقُهُ فِي ٱلْمَاءِ مَعَ بَعْضِ ٱلْبُصَيْلاَتِ .

وَٱزْدَادَ حُزْنُنَا عِنْدَمَا عَلِمَ بِأَنَّ أُمَّهُ قَدْ لاَ تَجِدُ مَا تُقَدِّمُهُ لَهُمْ غَدًا مِنَ ٱلطَّعَامِ ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ بِالدَّمْعِ وَصَرَخَ بَاكِيًا . إِلاَّ أَنَّ أُمَّهُ أَخَذَتْ تُسَلِّيهِ وَتَقُولُ لَهُ :

« ... لاَ تَخَفْ ،يَابُنَيَّ ، وَلاَ تَجْزَعْ ... لَعَلَّ رَحْمَةَ ٱللهِ تُدْرِكُنَا . وَلَعَلَّ أَبَاكَ يُشْفَى مِنْ مَرَضِهِ فَتَعُودَ لَنَا ٱلْحَيَاةُ ٱلْهَنِيئَةُ ٱلسَّعِيدَةُ .»

وَٱسْتَجَابَ قَيْسُونُ لِرَغْبَةِ أُمِّهِ فَأَمْسَكَ عَنِ ٱلْبُكَاءِ ، إِلاَّ أَنَّهُ بَقِيَ يُفَكِّرُ طُولَ ٱللَّيْلِ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي سَبِيلِ إِخْرَاجِ أُسْرَتِهِ مِنَ ٱلْحَالَةِ ٱلْبَائِسَةِ ٱلَّتِي أَصْبَحَتْ عَلَيْهَا .

ذَهَبَ قَيْسُونُ مَعَ عَنْزِهِ إِلَى ٱلْجَبَلِ دُونَ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ شَيْئًا مِنَ ٱلطَّعَامِ. وَقَبْلَ مُنْتَصَفِ ٱلنَّهَارِ أَحَسَّ بِٱلْجُوعِ ٱلشَّدِيدِ ، فَشَرِبَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْمَاءِ



عَسَى أَنْ يَخِفَّ عَنْهُ ٱلْجُوعُ وَٱلْعَطَشُ . وَرَغْمَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ كَانَ يُفَكِّرُ فِي مَرَضِ أَبِيهِ وَجُوعِ أُمِّهِ وَإِخْوَتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يُفَكِّرُ فِي جُوعِهِ وَعَطَشِهِ . وَذَهَبَ إِلَى ٱلْكَهْفِ ، تَتْبَعُهُ عَنْزُهُ ، لِيَتَّقِيَ حَرَّ ٱلظَّهِيرَةِ . وَمَا إِنِ ٱسْتَرَاحَ قَلِيلاً فِي ظِلِّ ٱلْكَهْفِ حَتَّى عَادَ مِنْ جَدِيدٍ يُفَكِّرُ فِي ذَبْحِ ٱلْعَنْزِ كَيْ يُنْقِذَ أُسْرَتَهُ مِنَ ٱلْخَطَرِ .

وَكَانَ - هَذِهِ ٱلْمَرَّةَ - أَقْوَى عَزِيمَةً عَلَى تَنْفِيذِ ذَبْحِ ٱلْعَنْزِ مَهْمَا تَحَمَّلَ مِنْ آلاَمٍ وَأَتْعَابٍ . وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

«... يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أُضَحِّيَ فِي سَبِيلِ أَبِي وَأُمِّي ... لِتَذْهَبِ ٱلْعَنْزُ فِدَاءً لِأُسْرَتِي ... مَاذَا سَيَحْصُلُ لِي إِذَا بَقِيتُ بِدُونِ هَذِهِ ٱلْعَنْزِ ؟ سَوْفَ أُلِحُّ عَلَى أُمِّي وَأَتَرَجَّاهَا ... إِنَّهَا سَتَرْفُضُ إِشْفَاقًا عَلَيَّ ، لِأَنَّهَا تَعْلَمُ شِدَّةَ مَحَبَّتِي لِهَذِهِ ٱلْعَنْزِ وَتَعَلُّقِي بِهَا ؛ لَكِنَّنِي سَأُلِحُّ عَلَيْهَا ... سَأَتَضَرَّعُ

إِلَيْهَا حَتَّى تَسْتَجِيبَ لِرَغْبَتِي وَنَذْبَحَ ٱلْعَنْزَ ...»

وَنَهَضَ عَلَى مَضَضٍ ، وَهُوَ يَكَادُ يَسْقُطُ مِنَ ٱلْجُوعِ وَٱلْإِرْهَاقِ . ثُمَّ أَمْسَكَ بِمِزْمَارِهِ ٱلْقَصَبِيِّ لِيَعْزِفَ آخِرَ لَحْنٍ يُوَدِّعُ بِهِ عُنَيْزَتَهُ ٱلْمَحْبُوبَةَ .

وَٱنْسَاقَ - دُونَ أَنْ يَشْعُرَ - إِلَى عَزْفِ نَغْمَةِ «ٱلْمَزْمُومِ» فِي لَحْنٍ مُؤَثِّرٍ حَزِينٍ . وَتَخَيَّلَ أَبَاهُ مُمَدَّداً عَلَى فِرَاشِهِ يُحْتَضَرُ فَجَاشَتْ نَفْسُهُ حُزْنًا ، وَٱغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ دُمُوعًا . لَكِنَّهُ ٱسْتَمَرَّ يَعْزِفُ بِقُوَّةٍ خَارِقَةٍ وَمَهَارَةٍ عَجِيبَةٍ حَتَّى تَصَبَّبَ جَبِينُهُ عَرَقًا ، وَٱحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ بُكَاءً!.

أَمَّا ٱلْعَنْزُ فَكَانَ أَمْرُهَا غَرِيبًا : فَمُنْذُ أَنِ ٱبْتَدَأَ قَيْسُونُ يَعْزِفُ هَذَا ٱللَّحْنَ ٱلْحَزِينَ كَانَتْ هِيَ تَرْتَعِدُ وَتَرْتَعِشُ ، تَئِنُّ وَتَتَأَلَّمُ . وَكَانَتْ تَذْرِفُ ٱلدُّمُوعَ غَزِيرَةً مِدْرَارَةً دُونَ أَنْ يَنْتَبِهَ قَيْسُونُ إِلَى حَالَتِهَا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُغْرِقًا فِي عَزْفِهِ ، وَقَدْ مَلَكَ عَلَيْهِ ٱللَّحْنُ كُلَّ مَشَاعِرِهِ .

وَعِنْدَمَا بَلَغَ ٱلْعَزْفُ أَشَدَّ تَأْثِيرِهِ فِي ٱلْعَنْزِ صَاحَتْ بِهِ قَائِلَةً :

- كَفَى قَيْسُونُ !.. كَفَى قَيْسُونُ !..

لَمْ يَسْمَعْ قَيْسُونُ صِيَاحَ ٱلْعَنْزِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي أَشَدِّ ٱلْإِجْهَادِ وَٱلْاِنْفِعَالِ ... كَانَ مُغْمَضَ ٱلْعَيْنَيْنِ ، تَائِهًا فِي جَوِّهِ ٱلنَّفْسِيِّ ٱلْمُضْطَرِبِ ، فَاسْتَمَرَّ فِي عَزْفِهِ كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَحْدُثْ . عِنْدَ ذَلِكَ نَهَضَتِ ٱلْعَنْزُ وَأَدْنَتْ فَمَهَا مِنْ أُذُنِ قَيْسُونَ . وَقَالَتْ لَهُ :

- كَفَى قَيْسُونُ !.. كَفَى قَيْسُونُ !.. إِنَّنِي أَمُوتُ إِذَا تَمَادَيْتَ فِي عَزْفِ هَذَا ٱللَّحْنِ ... أُطْلُبْ مَا تُرِيدُ ، وَكُفَّ عَنْ هَذَا ٱللَّحْنِ .

دُهِشَ قَيْسُونُ لِهَذَا ٱلصَّوْتِ ٱلْغَرِيبِ ٱلَّذِي لَمْ يَسْمَعْهُ مِنْ قَبْلُ . وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَلَمْ يَرَ إِلاَّ عَنْزَهُ بِجَانِبِهِ، وَهْيَ فِي ٱضْطِرَابٍ شَدِيدٍ وَحُزْنٍ وَاضِحٍ . فَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

«... تُرَى صَوْتُ مَنْ هَذَا ٱلَّذِي سَمِعْتُ ٱلآنَ ! ؟ هَلْ هُوَ صَوْتُ عُنَيْزَتِي ؟ لاَ ... إِنَّهَا عَجْمَاءُ لاَ تَتَكَلَّمُ ... إِنَّهَا ٱلأَوْهَامُ عَبَثَتْ بِسَمْعِي »

وَعَادَ إِلَى مِزْمَارِهِ يَعْزِفُ لَحْنَ «ٱلْمَزْمُومِ». وَإِذَا عَنْزُهُ تُكَلِّمُهُ مِنْ جَدِيدٍ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَكُفَّ عَنِ ٱلْعَزْفِ. لَقَدْ رَآهَا ٱلآنَ تَتَكَلَّمُ ... رَآهَا بِعَيْنَيْهِ. إِذَنْ لَمْ يَبْقَ لَهُ أَدْنَى شَكٍّ فِي ذَلِكَ ، فَصَاحَ بِهَا مَذْعُوراً :

ـ عُنَيْزَتِي الْغَالِيَةَ ! أَنْتِ تَتَكَلَّمِينَ مِثْلَ ٱلإِنْسَانِ !!! ... إِنَّ أَمْرَكِ عَجِيبٌ. أَلَسْتِ حَيَوَانًا أَبْكَمَ ؟ فَهَلْ أَنْتِ عِفْرِيتَةٌ مِنَ ٱلْجِنِّ ؟.. إِذَنْ أَنْقِذِينِي مِمَّا أَنَا فِيهِ ... أَنْقِذِينِي يَاعُنَيْزَتِي ٱلْحَبِيبَةَ ...»

فَارْتَعَشَتِ ٱلْعَنْزُ . ثُمَّ قَالَتْ بِلِسَانٍ فَصِيحٍ وَصَوْتٍ مُتَوَسِّلٍ حَنُونٍ :

ـ وَمَاذَا تُرِيدُ ، يَاقَيْسُونُ ؟

فَأَجَابَهَا فِي فَرَحٍ وَدَهْشَةٍ :

– إِنَّ أَبِي يُحْتَضَرُ . أُرِيدُ شِفَاءَهُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ ... إِنَّ إِخْوَتِي يَتَضَوَّرُونَ جُوعًا . أُرِيدُ إِشْبَاعَهُمْ وَإِبْعَادَ ٱلسَّغَبِ عَنْهُمْ ... فَهَلْ أَنْتِ قَادِرَةٌ عَلَى ذَلِكَ ؟ ؟ .

– ٱلصَّبْرُ مِفْتَاحُ ٱلْفَرَجِ ، يَاقَيْسُونِي ٱلْعَزِيزَ ؛ فَلاَ تَتَعَجَّلْ ... إِنَّ شِفَاءَ أَبِيكَ بِيَدِكَ أَنْتَ إِذَا كُنْتَ شُجَاعًا صَبُورًا ، وَأَتَيْتَ بِالدَّوَاءِ ٱلَّذِي يَشْفِيهِ .

– مَا هُوَ هَذَا ٱلدَّوَاءُ ؟.. قُولِي ... أَسْرِعِي .

– هُوَ أَنْ يَأْكُلَ أَبُوكَ قَلْبَ «ٱلْوَعْلِ» مِنْ جَبَلِ «ٱلأَشْكَلِ» ... فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصْطَادَ وَاحِدًا مِنْ وُعُولِ هَذَا ٱلْجَبَلِ ؟

– وَأَيْنَ أَنَا مِنْ ذَلِكَ ٱلْجَبَلِ ٱلْبَعِيدِ ؟ ! إِنَّ أَبِي قَدْ يُدْرِكُهُ ٱلْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ أَصِلَ إِلَى سَفْحِ ٱلْجَبَلِ .

– إِذَا كُنْتَ صَبُورًا شُجَاعًا فَأَنَا أَضْمَنُ لَكَ أَنْ تَصِلَ إِلَى سَفْحِ ٱلْجَبَلِ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ . ثُمَّ أَعُودُ بِكَ بِنَفْسِ ٱلسُّرْعَةِ ؛ فَمَا عَلَيْكَ إِلاَّ أَنْ تَصْطَادَ



ٱلْوَعْلَ ، وَتَشُقَّ بَطْنَهُ ، وَتُخْرِجَ مِنْ جَوْفِهِ قَلْبَهُ لِيَأْكُلَهُ أَبُوكَ .

ــ لِنَذْهَبِ ٱلْآنَ ، يَاعُنَيْزَتِي .

ــ نَعَمْ لِنَذْهَبَ ٱلْآنَ ... اسْمَعْنِي جَيِّدًا، يَاقَيْسُونُ .. اِمْتَطِ ظَهْرِي . وَٱعْزِفْ بِمِزْمَارِكَ ذَلِكَ ٱللَّحْنَ ٱلَّذِي كُنْتَ تَعْزِفُهُ مِنْ قَبْلُ . وَسَوْفَ نَصِلُ إِلَى

ٱلْجَبَلِ بِسُرْعَةٍ لَمْ تَخْطُرْ عَلَى بَالِكَ

وَمَا كَادَتِ ٱلْعَنْزُ تُنْهِي كَلَامَهَا حَتَّى كَانَ قَيْسُونُ فَوْقَ ظَهْرِهَا يَعْزِفُ نَغْمَةَ «ٱلْمَزْمُومِ». وَقَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ نَفَسَهُ ثَانِيَةً وَصَلَتْ بِهِ ٱلْعَنْزُ إِلَى سَفْحِ جَبَلِ «ٱلْأَشْكَالِ» فَنَزَلَ إِلَى ٱلْأَرْضِ، وَهُوَ لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ مَا يَرَى. وَبَادَرَتْهُ ٱلْعَنْزُ بِقَوْلِهَا :

«- اِصْعَدِ ٱلْجَبَلَ، يَاعَزِيزِي. وَٱبْذُلْ كُلَّ جُهُودِكَ وَقُوَاكَ لِتَصْطَادَ وَعْلاً مِنْ وُعُولِهِ ٱلْكَثِيرَةِ. وَلْتَكُنْ عَلَى حَذَرٍ كَبِيرٍ مِنْهَا؛ إِنَّ لَهَا قُرُونًا حَادَّةً كَالسُّيُوفِ ٱلْمُنْحَنِيَةِ. أَمَّا أَنَا فَسَأَبْقَى هُنَا فِي ٱنْتِظَارِكَ؛ لِأَنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ ٱلصُّعُودَ مَعَكَ. وَإِذَا جَابَهَكَ مَكْرُوهٌ، أَوْ وَقَعْتَ فِي مَأْزِقٍ فَاعْزِفْ عَلَى مِزْمَارِكَ، وَسَأَبْعَثُ إِلَيْكَ بِمَا يُنْقِذُكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ. أَسَمِعْتَ جَيِّدًا، يَاقَيْسُونُ ؟.. وَٱلْآنَ ... خُذْ هَذِهِ ٱلْقَوْسَ، وَهَذِهِ ٱلْجَعْبَةَ ٱلْمَمْلُوءَةَ بِالسِّهَامِ.

وَلْتَكُنْ شُجَاعًا ... وَلْتَكُنْ سِهَامُكَ مُسَدَّدَةً ، مُوَفَّقَةً ...»

كَانَ قَيْسُونُ يَسْتَمِعُ إِلَى ٱلْعَنْزِ بِكُلِّ ٱنْتِبَاهٍ وَيَقَظَةٍ . وَدُونَ أَنْ يُجِيبَهَا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ حَمَلَ ٱلْقَوْسَ وَجَعْبَةَ ٱلسِّهَامِ وَبَدَأَ يَتَوَقَّلُ ٱلْجَبَلَ فِي حَذَرٍ وَحَزْمٍ . وَكَانَ يَلْتَفِتُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً عَسَى أَنْ يَرَى ٱلْوُعُولَ فَيُسَدِّدَ إِلَيْهَا سِهَامَهُ .

قَطَعَ قَيْسُونُ مَسَافَةً كَبِيرَةً فِي ٱلْجَبَلِ دُونَ أَنْ يَعْتَرِضَ لَهُ أَيُّ حَيَوَانٍ . ثُمَّ أَلْقَى بِنَظَرِهِ إِلَى سَفْحِ ٱلْجَبَلِ فَبَدَتْ لَهُ عَنْزُهُ صَغِيرَةً جِدًّا كَأَنَّهَا حَبَّةُ زَيْتُونٍ أَوْ خُنْفُسَاءُ جَاثِمَةٌ عَلَى ٱلْأَرْضِ، فَعَرَفَ أَنَّهُ ارْتَفَعَ كَثِيرًا عَنْ سَطْحِ ٱلْأَرْضِ، وَأَنَّهُ ٱجْتَازَ جَانِبًا كَبِيرًا مِنْ هَذَا ٱلْجَبَلِ ٱلشَّاهِقِ .

وَبَيْنَمَا كَانَ يَتَأَمَّلُ شَجَرَةً عَتِيقَةً مِنْ شَجَرِ «ٱلْفِرْنَانِ» إِذَا بِهِ يَسْمَعُ ضَجَّةً عَالِيَةً وَجَلَبَةً صَاخِبَةً ، فَالْتَفَتَ مَذْعُورًا ، فَرَأَى قَطِيعًا عَظِيمًا مِنَ ٱلْوُعُولِ يَعْدُو بِسُرْعَةٍ كَبِيرَةٍ فِي فَزَعٍ وَشُرُودٍ . وَأَسْرَعَ قَيْسُونُ فَأَمْسَكَ بِقَوْسِهِ

وَشَرَعَ يَرْمِي ٱلسِّهَامَ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ دُونَ أَنْ يُصِيبَ أَيَّ وَعْلٍ مِنْهَا .

وَبَعْدَ لَحَظَاتٍ مَرَّ قَطِيعٌ آخَرُ، فَاسْتَشَاطَ قَيْسُونُ حَمِيَّةً وَنَشَاطًا وَٱنْدَفَعَ يَرْمِي سِهَامَهُ فِي حَمَاسٍ كَبِيرٍ . وَلَكِنَّ حَظَّهُ هَذِهِ ٱلْمَرَّةَ لَمْ يَكُنْ أَحْسَنَ مِنْ حَظِّهِ فِي ٱلْمَرَّةِ ٱلْأُولَى ؛ فَشَعَرَ بِالْفَشَلِ وَخَيْبَةِ ٱلْأَمَلِ . وَتَفَقَّدَ جَعْبَةَ ٱلسِّهَامِ فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا إِلاَّ عَدَدًا قَلِيلاً ، فَحَزِنَ لِذَلِكَ.وَخَافَ أَنْ تَنْفَدَ ٱلسِّهَامُ قَبْلَ أَنْ يَصِيدَ أَحَدَ ٱلْوُعُولِ . لِهَذَا قَرَّرَ أَنْ يَحْتَاطَ فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ ، وَأَلاَّ يَرْمِيَ أَيَّ سَهْمٍ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يُحَدِّدَ هَدَفَهُ بِكُلِّ دِقَّةٍ .

مَضَتْ سَاعَاتٌ طَوِيلَةٌ عَلَى قَيْسُونَ وَهُوَ يَتَجَوَّلُ بَيْنَ ٱلشِّعَابِ بَحْثًا عَنِ ٱلْوُعُولِ. وَكَادَ يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ ٱلْيَأْسُ وَيَرْجِعُ بِلاَ شَيْءٍ . ثُمَّ فَكَّرَ فِي ٱلصُّعُودِ إِلَى شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ يَتَطَلَّعُ مِنْ فَوْقِهَا إِلَى ٱلْوُعُولِ وَيَتَرَصَّدُ مُرُورَهَا مِنْ تَحْتِهِ، فَقَدْ يَكُونُ صَيْدُهَا أَيْسَرَ ، وَتَكُونُ إِصَابَتُهَا أَمْكَنَ .



وَبَعْدَ تَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ أَدْرَكَ قَيْسُونُ أَعْلَى
ٱلشَّجَرَةِ ، فَحَدَّقَ بِبَصَرِهِ إِلَى كُلِّ
ٱلْجِهَاتِ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا ؛ كَأَنَّ
ٱلْجَبَلَ أَصْبَحَ خَالِيًا مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ

ثُمَّ أَخَذَ يَمُدُّ بِعُنُقِهِ وَيَتَطَلَّعُ إِلَى كُلِّ ٱلْجِهَاتِ وَٱلنَّوَاحِي ٱلْبَعِيدَةِ وَٱلْقَرِيبَةِ حَتَّى نَسِيَ أَنَّهُ فَوْقَ ٱلشَّجَرَةِ فَفَقَدَ تَوَازُنَهُ، وَزَلَّتْ بِهِ قَدَمُهُ، فَوَقَعَ مِنْ أَعْلَى ٱلشَّجَرَةِ وَسَقَطَ عَلَى ٱلْأَرْضِ .

وَمِنْ حُسْنِ حَظِّهِ أَنَّ ٱلْمَكَانَ ٱلَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ كَانَ رِمَالاً رَخْوَةً فَلَمْ تُصِبْهُ إِلاَّ رُضُوضٌ خَفِيفَةٌ وَخُدُوشٌ طَفِيفَةٌ سَبَّبَتْهَا لَهُ ٱلْأَغْصَانُ أَثْنَاءَ سُقُوطِهِ ، فَتَأَلَّمَ لِذَلِكَ قَلِيلاً ، ثُمَّ نَهَضَ وَنَفَضَ عَنْهُ ٱلْغُبَارَ وَٱلتُّرَابَ ، وَٱسْتَعَدَّ لِيُوَاصِلَ ٱلسَّيْرَ وَٱلْبَحْثَ عَنِ ٱلْوُعُولِ .

شَعَرَ قَيْسُونُ بِأَلَمٍ خَفِيفٍ فِي رُكْبَتِهِ فَٱنْحَنَى عَلَيْهَا يَدْلُكُهَا بِجُمْعِ كَفِّهِ ٱلْيُمْنَى ثُمَّ ٱنْتَصَبَ قَائِمًا . وَلَمْ يَلْبَثْ قَلِيلاً حَتَّى رَأَى وَعْلاً مُنْفَرِدًا يَمْشِي عَلَى مَهَلٍ ، وَيَقِفُ مِنْ حِينٍ لآخَرَ لِيَقْضِمَ ٱلْعُشْبَ وَٱلنَّبَاتَ ؛ فَخَفَقَ لِذَلِكَ قَلْبُهُ ، وَنَسِيَ ٱلتَّعَبَ وَٱلْأَلَمَ . وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

«... آهْ ... هَذَا وَعْلٌ مُنْفَرِدٌ!إِذَا لَمْ يُسْعِدْنِي ٱلْحَظُّ هَذِهِ ٱلْمَرَّةَ فَلَنْ أُصِيبَ وَعْلاً أَبَداً ... يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَخْتَفِيَ وَرَاءَ مُلْتَفٍّ مِنَ ٱلْأَشْجَارِ حَتَّى إِذَا اقْتَرَبَ مِنِّي ٱلْوَعْلُ رَمَيْتُهُ بِسَهْمٍ لاَ يُخْطِئُهُ ... آهْ يَا رَبِّي ... إِنَّ ٱلْفُرْصَةَ مُؤَاتِيَةٌ !... إِنَّهُ يَقْتَرِبُ مِنِّي !..»

اِخْتَارَ قَيْسُونُ مُلْتَفًّا مِنَ ٱلشَّجَرِ وَٱنْدَسَّ فِيهِ ، فَكَانَ لاَ يَرَاهُ حَتَّى مَنْ كَانَ عَلَى خُطُوَاتٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ .وَظَلَّ يُرَاقِبُ سَيْرَ ٱلْوَعْلِ ، وَيَتَتَبَّعُ كُلَّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِهِ ، وَهُوَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ حَمِيَّةً وَحَمَاسًا . وَكَانَ ٱلْوَعْلُ يَقْتَرِبُ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنْ مَخْبَإِ قَيْسُونَ،وَيَتَوَقَّفُ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ لِيَقْضِمَ عُشْبًا أَوْ لِيَرْفَعَ رَأْسَهُ كَأَنَّهُ يَتَطَلَّعُ إِلَى شَيْءٍ لِيَرَاهُ أَوْ إِلَى صَوْتٍ لِيَسْمَعَهُ . وَٱسْتَعَدَّ قَيْسُونُ لِيُنَفِّذَ خُطَّتَهُ ؛ فَانْبَطَحَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ، وَأَخْفَتَ مِنْ نَفَسِهِ ، وَأَوْقَفَ كُلَّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِهِ . وَعِنْدَمَا أَصْبَحَ ٱلْوَعْلُ عَلَى بُعْدِ ذِرَاعَيْنِ مِنْ مَخْبَإِ

قَيْسُونَ تَوَقَّفَ عَنِ ٱلسَّيْرِ فَجْأَةً وَأَدَارَ رَأْسَهُ إِلَى كُلِّ ٱلْجِهَاتِ كَأَنَّهُ شَعَرَ بِخَطَرٍ يُهَدِّدُهُ . وَفِي تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ ٱسْتَطَاعَ قَيْسُونُ أَنْ يُحَدِّدَ هَدَفَ سَهْمِهِ . وَبِمَهَارَةٍ عَجِيبَةٍ سَدَّدَ ٱلسَّهْمَ وَرَمَى بِهِ فَاسْتَقَرَّ فِي مَنْبَتِ أُذُنِ ٱلْوَعْلِ، فَصَاحَ صَيْحَةً مَهُولَةً، وَقَفَزَ قَفْزَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ سَقَطَ بَعْدَهُمَا عَلَى ٱلْأَرْضِ .



وَأَسْرَعَ قَيْسُونُ إلَى صَيْدِهِ فَوَجَدَهُ يَتَضَرَّجُ فِي دِمَائِهِ وَيَلْفظُ نَفَسَهُ ٱلْأَخِيرَ ،فَفَرِحَ أَشَدَّ ٱلْفَرَحِ . لَكِنْ سَرْعَانَ مَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ ٱلْحُزْنُ وَٱلْوُجُومُ ! لَقَدْ تَذَكَّرَ أَنَّهُ لاَ يَمْلِكُ سِكِّينًا أَوْ خَنْجَرًا لِيَشُقَّ صَدْرَ ٱلْوَعْلِ وَيُخْرِجَ قَلْبَهُ ، فَاضْطَرَبَ ، وَخَافَ أَنْ تُدْرِكَهُ ٱلْوُعُولُ وَتَنْتَقِمَ مِنْهُ ، أَوْ أَنْ تَأْتِيَ ٱلْحَيَوَانَاتُ ٱلْمُفْتَرِسَةُ فَتَفْتِكَ بِالوَعْلِ ، وَتَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ انْتِزَاعِ ٱلْقَلْبِ ٱلَّذِي فِيهِ شِفَاءُ وَالِدِهِ .

أَظْلَمَت ٱلدُّنْيَا فِي وَجْهِ قَيْسُونَ. وَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ أَظَافِرَهُ كَانَتْ فِي قُوَّةِ مَخَالِبِ ٱلْعُقْبَانِ وَٱلنُّسُورِ ، أَوْ أَنَّ أَسْنَانَهُ كَانَتْ فِي قُوَّةِ أَنْيَابِ ٱلْأُسُودِ وَٱلنُّمُورِ حَتَّى يَنْقَضَّ عَلَى جُثَّةِ ٱلْوَعْلِ وَيَنْتَزِعَ مِنْهَا ٱلْقَلْبَ بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ. وَٱشْتَدَّتْ حَيْرَتُهُ .وَكَادَ يُجْهِشُ بِالْبُكَاءِ أَسَفًا وَحُزْنًا ، لَوْلاَ أَنَّهُ تَذَكَّرَ مَا وَعَدَتْهُ بِهِ عَنْزُهُ إذَا احْتَاجَ إِلَيْهَا أَوْ وَقَعَ فِي مَأْزِقٍ ، فَأَمْسَكَ بِالْمِزْمَارِ

وَعَزَفَ نَغْمَةَ «ٱلْمَزْمُومِ» . وَلَمْ يَلْبَثْ قَلِيلاً فِي عَزْفِهِ حَتَّى رَأَى سِكِّينًا مُرْهَفَةَ ٱلْحَدِّ مُلْقَاةً بِجَانِبِ ٱلْوَعْلِ فَتَلَقَّفَهَا بِكِلْتَا يَدَيْهِ ، وَٱنْكَبَّ عَلَى جُثَّةِ ٱلْوَعْلِ يَشُقُّهَا وَيُشَرِّحُهَا إِلَى أَنْ أَخْرَجَ قَلْبَ ٱلْوَعْلِ فَوَضَعَهُ فِي جَعْبَةِ ٱلسِّهَامِ . وَنَزَلَ يَجْرِي مِنَ ٱلْجَبَلِ دُونَ ٱلْتِفَاتٍ أَوْ تَوَقُّفٍ . وَمَا إِنْ أَدْرَكَ سَفْحَ ٱلْجَبَلِ حَتَّى قَفَزَ فَوْقَ ظَهْرِ ٱلْعَنْزِ وَصَاحَ يُخَاطِبُهَا :

- أَسْرِعِي ... أَسْرِعِي، يَاعُنَيْزَتِي ... إِنَّ أَبِي يَنْتَظِرُنَا ... إِنَّهُ يَكَادُ يَمُوتُ .

وَأَمْسَكَ بِالْمِزْمَارِ وَعَزَفَ نَغْمَةَ «ٱلْمَزْمُومِ». وَقَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ نَفَسَهُ ثَانِيَةً ، وَقَفَتْ بِهِ ٱلْعَنْزُ أَمَامَ ٱلْكُوخِ ، فَدَخَلَ مُسْرِعاً يُفَتِّشُ عَنْ أُمِّهِ ، فَوَجَدَهَا مَعَ إِخْوَتِهِ يَبْكُونَ وَٱلْوَالِدُ ٱلْمُغْمَى عَلَيْهِ . وَلَمْ يَنْتَظِرْ قَيْسُونُ طَوِيلاً . فَطَلَبَ مِنْ أُمِّهِ أَنْ تُبَادِرَ بِإِشْعَالِ ٱلْحَطَبِ، بَيْنَمَا أَخَذَ هُوَ يُقَطِّعُ قَلْبَ ٱلْوَعْلِ شَرَائِحَ لِيَشْوِيَهَا عَلَى ٱلنَّارِ .

وَلَمَّا نَضجَت ٱلشَّرِيحَةُ ٱلْأُولى أَسْرَعَ بِهَا إلىَ وَالِدِهِ . لَكِنَّ ٱلْحَطَّابَ ٱلْمِسْكِينَ كَانَ فَاقِداً لِلْوَعْيِ ، فَلاَ يَسْتَطِيعُ فَتْحَ فَمِهِ لِيَتَنَاوَلَ ٱلطَّعَامَ أَوْ ٱلشَّرَابَ ؛ فَعَمَدَ قَيْسُونُ إلىَ عَصْرِ شَرِيحَةِ ٱللَّحْمِ بَيْنَ شَفَتَيْ أَبِيهِ ٱلْمَرِيضِ ، وَحَرَّكَ فَكَّهُ ٱلْأَسْفَلَ فَدَخَلَ عَصِيرُ ٱللَّحْمِ إلىَ فَمِ ٱلْمُحْتَضَرِ . ثُمَّ زَادَهُ شَرِيحَةً ثَانِيَةً فَبَدَأَ نَفَسُ ٱلْحَطَّابِ يَعْلُو وَتَقْوَى نَبَضَاتُ قَلْبِهِ وَبَعْدَ ٱلشَّرِيحَةِ ٱلْخَامِسَةِ دَبَّتِ ٱلْحَيَاةُ فِي وَجْهِ ٱلْحَطَّابِ فَحَرَّكَ رَأْسَهُ وَيَدَيْهِ . ثُمَّ فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَأَدَارَهُمَا حَوْلَهُ . وَلَمَّا وَقَعَ نَظَرُهُ عَلى زَوْجَتِهِ



وَأَطْفَالَه اْبتَسَمَ لَهُمُ ٱبْتِسَامَةً خَفِيفَةً ، فَصَاحَ قَيْسُونُ فَرَحًا ، وَٱنْدَفَعَ يُقَبِّلُ أُمَّهُ وَيَحْتَضِنُ إِخْوَتَهُ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ .

وَلَمْ يَمْضِ أُسْبُوعٌ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى ٱسْتَعَادَ ٱلْحَطَّابُ قُوَاهُ ، وَعَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ صِحَّةٍ . وَٱسْتَأْنَفَ عَمَلَهُ فِي غَابَةِ «سَجْنَان» يَقْطَعُ ٱلْأَخْشَابَ وَيَجْمَعُ ٱلْحَطَبَ .

لَمْ يَقْنَعْ قَيْسُونُ بِمَا قَدَّمَتْهُ لَهُ عَنْزُهُ مِنْ مَعْرُوفٍ ؛ لِأَنَّهُ أَصْبَحَ يَعْتَقِدُ أَنَّ فِي ٱسْتِطَاعَتِهَا أَنْ تَجْلُبَ لِأُسْرَتِهِ السَّعَادَةَ وَٱلْغِنَى مِثْلَمَا ٱسْتَطَاعَتْ أَنْ تَجْلُبَ لِأَبِيهِ ٱلسَّلَامَةَ وَٱلشِّفَاءَ . فَكَانَ يَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ تُوَفِّرَ لِأُسْرَتِهِ السَّعَادَةَ وَٱلْهَنَاءَ وَٱلْغِنَى .

وَكَانَ يُلِحُّ عَلَيْهَا فِي إِجَابَةِ رَغَبَاتِهِ وَطَلَبَاتِهِ . وَلَكِنَّ ٱلْعَنْزَ لَمْ تُجِبْهُ .

إلَى ذَلِكَ . بَلْ عَادَتْ إلَى بَكَمِهَا ٱلْأَوَّلِ .وَأَصْبَحَتْ لاَ تَتَكَلَّمُ ، وَكَأَنَّهَا لاَ تَسْمَعُ .

وَفِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ ٱلرَّبِيعِ ـ بَيْنَمَا كَانَ قَيْسُونُ يَسْتَظِلُّ فِي أَحَدِ ٱلْكُهُوفِ وَبِجَانِبِهِ عَنْزُهُ تَجْتَرُّ مَا أَكَلَتْهُ فِي ٱلصَّبَاحِ ـ تَسَاءَلَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ :

«... لِمَاذَا لاَ تُجِيبُنِي عَنْزِي عِنْدَمَا أَسْأَلُهَا ؟ لَقَدْ مَضَتْ شُهُورٌ وَشُهُورٌ دُونَ أَنْ تَنْطِقَ أَوْ تَتَكَلَّمَ ... إِنَّ أَمْرَهَا لَغَرِيبٌ حَقًّا !... وَلَكِنَّ أَمْرِي أَغْرَبُ !.. فَلِمَاذَا نَسِيتُ أَنَا نَغْمَةَ «ٱلْمَزْمُومِ» طِيلَةَ هَذِهِ ٱلشُّهُورِ ؟ يَجِبُ أَنْ أُعِيدَ ٱلتَّجْرِبَةَ ، فَلَعَلَّهَا تَتَكَلَّمُ مِنْ جَدِيدٍ ...»

وَأَسْرَعَ إلَى مِزْمَارِهِ يَعْزِفُ نَغْمَةَ «ٱلْمَزْمُومِ». وَرَدَّدَتْ جَنَبَاتُ ٱلْكَهْفِ هَذَا ٱللَّحْنَ ٱلْمُؤَثِّرَ ٱلْحَزِينَ ؛ فَابْتَدَأَتِ ٱلْعَنْزُ تَتَأَثَّرُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَتَنْظُرُ إلَى قَيْسُونَ نَظَرَاتٍ كُلُّهَا ٱسْتِعْطَافٌ وَٱسْتِرْحَامٌ . إلاَّ أَنَّ قَيْسُونَ كَانَ مَشْغُولاً

عَنْهَـا . كَانَ مُنْسَاقًا مَعَ نَغَمِهِ ٱلْحَزِينِ ، سَابِحًـا فِي جَوِّهِ ٱلرَّائِـعِ ، غَيْـرَ مُهْتَـمٍّ بِشَيْءٍ سِـوَى لَحْنِـهِ وَنَغَمَـاتِ مِزْمَارِهِ .

وَتَمَادَى مُمْعِنًـا فِي ٱلْعَزْفِ إِلَى أَنْ بَلَـغَ تَأَثُّـرُ ٱلْعَنْزِ حَدًّا لَمْ تَسْتَطِـعْ مَعَهُ صَبْـرًا ، فَاقْتَـرَبَتْ مِنْـهُ وَقَالَـتْ :

– كَفَـى قَيْسُـونُ !.. كَفَـى قَيْـسُونُ !.. إِنِّـي أَكَادُ أَمُوتُ ... فَمَـاذَا تُـرِيـدُ ، يَا قَيْسُـونُ ؟..

– آهْ ... نَطَقْـتِ ٱلْآنَ ... أُرِيـدُ إِنْقَـاذَ أُسْرَتِي مِنَ ٱلْفَقْـرِ ... أُرِيـدُ أَنْ تَتَخَلَّـصَ مِنَ ٱلْحِرْمَانِ وَشَظَفِ ٱلْعَيْشِ .

– إِذَنْ لاَ تَـكُفَّ عَنِ ٱلْعَزْفِ ، يَاقَيْسُـونُ ... اِسْتَمِرَّ فِي نَغَمِكَ وَتَلْحِينِكَ .. اُبْـذُلْ كُـلَّ طَاقَتِـكَ وَجُهْدَكَ ... لاَ تَهْتَمَّ بِمَا يَبْـدُو عَلَيَّ مِنْ تَعَبٍ وَٱنْفِعَالٍ .. اِعْزِفْ بِـكُلِّ قُوَاكَ ، يَا قَيْسُونُ ... اِعْزِفْ ... اِعْـزِفْ ...»

اِسْتَوْلَى عَلَى قَيْسُونَ شُعُورٌ غَرِيبٌ ، عِنْدَمَا سَمِعَ كَلَامَ ٱلْعَنْزِ ، فَازْدَادَ إِمْعَانًا فِي ٱلْعَزْفِ . وَٱزْدَادَتْ هِيَ ٱنْتِفَاضًا وَٱرْتِعَادًا . ثُمَّ ٱبْتَدَأَتِ ٱلدُّمُوعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهَا سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ ، وَكَانَتْ دُمُوعُهَا لَمَّاعَةً بَرَّاقَةً ، كَبِيرَةً فِي حَجْمِ بَيْضِ ٱلْحَمَامِ .



تَعَجَّبَ قَيْسُونُ مِنْ هَذِهِ ٱلدُّمُوعِ ٱلْكَبِيرَةِ ٱلْبَرَّاقَةِ ٱلتِي كَانَتْ لاَ تَسِيلُ وَلاَ تَسِيحُ . وَإِنَّمَا كَانَتْ تَتَجَمَّعُ وَيَتَكَوَّمُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ؛ فَهَالَهُ ٱلأَمْرُ وَارْتَاعَ حَتَّى أُغْمِيَ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ ٱلْخَوْفِ .

وَجَاءَ ٱلْحَطَّابُ كَعَادَتِهِ إِلَى حَافَةِ ٱلْجَدْوَلِ لِيَعُودَ مَعَ ٱبْنِهِ إِلَى ٱلْكُوخِ . لَكِنَّ ٱلْحَطَّابَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا قُرْبَ ٱلْجَدْوَلِ ، فَاسْتَغْرَبَ ٱلأَمْرَ ، وَأَخَذَ يَبْحَثُ عَنِ ٱبْنِهِ .وَصَعِدَ فَوْقَ رَبْوَةٍ صَغِيرَةٍ وَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ مُنَادِيًا قَيْسُونَ؛ فَلَمْ يُجِبْهُ سِوَى صَدَى صَوْتِهِ ٱلْمُرَدَّدِ بَيْنَ هِضَابِ ٱلْجَبَلِ وَشِعَابِهِ . وَخَشِيَ ٱلْحَطَّابُ أَنْ يَكُونَ قَيْسُونُ قَدْ أَصَابَهُ مَكْرُوهٌ أَوْ ضَلَّ ٱلطَّرِيقَ وَتَاهَ بَيْنَ ٱلأَدْغَالِ وَٱلْفِجَاجِ ، فَطَفِقَ يَبْحَثُ عَنْهُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ حَتَّى ٱسْتَوْلَى عَلَيْهِ ٱلْيَأْسُ وَضَاقَتْ بِهِ ٱلدُّنْيَا .

وَظَلَّ ٱلْحَطَّابُ يَبْحَثُ عَنِ ابْنِهِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى ٱلْكَهْفِ ٱلذِي كَانَ بِهِ

قَيْسُونُ، فَوَجَدَهُ يَغُطُّ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ وَبِجَانِبِهِ كُومٌ صَغِيرٌ مِنَ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْبَرَّاقِ، فَازْدَادَ حَيْرَةً وَتَعَجُّبًا . ثُمَّ أَيْقَظَ ابْنَهُ وَسَأَلَهُ عَنْ هٰذِهِ ٱلْجَوَاهِرِ ٱلَّتِي تُوجَدُ بِقُرْبِهِ .

لَمْ يُجِبْ قَيْسُونُ أَبَاهُ عَنْ سُؤَالِهِ . بَلْ أَخَذَ يَبْحَثُ عَنْ عَنْزِهِ ٱلَّتِي لَمْ يَجِدْهَا بِجَانِبِهِ . وَخَرَجَ يَجْرِي مِنَ ٱلْكَهْفِ كَالْمَجْنُونِ يُفَتِّشُ عَنْهَا فِي مَسَارِبِ ٱلْجَبَلِ وَشِعَابِهِ إِلَى أَنْ أَدْرَكَهُ ٱلظَّلَامُ دُونَ أَنْ يَعْثُرَ لَهَا عَلَى أَثَرٍ ؛ فَعَادَ مَهْمُومًا إِلَى ٱلْكَهْفِ ، مُهْتَدِيًا بِصَوْتِ وَالِدِهِ ٱلَّذِي مَا انْفَكَّ يُنَادِيهِ وَيَصِيحُ بِاسْمِهِ فِي لَهْفَةٍ وَجَزَعٍ .

وَلَمَّا وَصَلَ ٱلْكَهْفَ عَانَقَ وَالِدَهُ، وَهُوَ يُجْهِشُ بِالْبُكَاءِ أَسَفًا وَحُزْناً عَلَى عَنْزِهِ ٱلْمَفْقُودَةِ، فَهَدَّأَ وَالِدُهُ رَوْعَهُ، وَطَلَبَ مِنْهُ ٱلتَّجَلُّدَ وَٱلصَّبْرَ .ثُمَّ سَأَلَهُ عَنْ هٰذَا ٱللُّؤْلُؤِ ٱلَّذِي كَانَ بِجَانِبِهِ ؛ فَتَنَهَّدَ قَيْسُونُ طَوِيلاً ثُمَّ قَالَ :

«... عَرَفْتُ ذَلِكَ ، يَاأَبِي ... إِنَّ ٱلدُّمُوعَ ٱلْكَبِيرَةَ ٱلَّتِي رَأَيْتُهَا تَتَسَاقَطُ مِنْ عُيُونِ عُنَيْزَتِي لَمْ تَكُنْ كَالدُّمُوعِ ٱلْمَعْرُوفَةِ ... لَمْ تَبْكِ عُنَيْزَتِي دُمُوعًا هَذِهِ ٱلْمَرَّةَ ... إِنَّمَا بَكَتْ لُؤْلُؤًا مُسْتَجِيبَةً لِرَغْبَتِي فِي إِبْعَادِ ٱلْفَقْرِ عَنَّا ... لَقَدْ قَالَتْ لِي : اِعْزِفْ يَاقَيْسُونُ .وَلاَ تَهْتَمَّ بِمَا يَبْدُو عَلَيَّ مِنْ تَعَبٍ وَٱنْفِعَالٍ ... آهْ ... مَا أَكْرَمَهَا مِنْ عَنْزٍ ... وَلَكِنْ أَيْنَ هِيَ ؟ .. إِنَّنِي أُرِيدُ أَنْ أَرَاهَا ... أَنْ أَضُمَّهَا إِلَى صَدْرِي ... أَنْ أَحْمِلَهَا إِلَى أُمِّي ...»

وَعَانَقَ قَيْسُونُ أَبَاهُ مِنْ جَدِيدٍ ، وَهُوَ يَبْكِي وَيَنْتَحِبُ . وَبَعْدَ أَنْ كَفَّ عَنِ ٱلْبُكَاءِ عَادَ مَعَ أَبِيهِ إِلَى ٱلْكُوخِ يَحْمِلاَنِ هَذِهِ ٱلثَّرْوَةَ مِنَ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلنَّفِيسِ .

وَرَغْمَ مَا أَصْبَحَ عَلَيْهِ قَيْسُونُ مِنَ ٱلنَّعِيمِ ، وَٱلسَّعَادَةِ ، وَٱلسَّعَةِ فِي ٱلرِّزْقِ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْسَ عُنَيْزَتَهُ ٱلْمَحْبُوبَةَ ، فَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ – عِنْدَ ٱلظَّهِيرَةِ – يَجْلِسُ تَحْتَ شَجَرَةِ «ٱلْفِرْنَانِ» يَعْزِفُ بِمِزْمَارِهِ ٱلْقَصَبِيِّ نَغْمَةَ «ٱلْمَزْمُومِ» تَحِيَّةً وَذِكْرَى لِعُنَيْزَتِهِ ٱلْمَحْبُوبَةِ .

مِن قصص الأطفال

الكبش النطاح
سلامة وعندريس
عرس الخنيفساء
ابو نصيحة
عنز قيسون
السمكة المغرورة
جنية ابن الازرق
العصفورة محاسن
شعاطيط بعاطيط
الكنوز الثلاثة

المحفظة المفقودة
اسد بن الفرات
شجرة الذهب
المعزلدين الله الفاطمى
العدل ينتصر
تينة العم مخلوف
البيضة المسحورة
حبيبك بورقيبة يا ولدى
أميرة الزنجبار
صياد الغزلان

بقرة العيد
الزوجة المثالية
دجاجة بائسة
الديك المغامر
سلسلة الحرف (4)
الطفل والطريق
ديوان الاطفال
أناشيد الاطفال

الثمن: 0.550 د.ت